

الدرس الأول

الكتاب المنزل : وظيفته وموقف الناس منه

﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤-١﴾﴾ (إبراهيم: ١-٤) .

الحروف المقطعة في بعض سور القرآن العظيم :

سورة إبراهيم تبدأ بقوله تعالى : ﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ (إبراهيم: ١) .
﴿الر﴾ : حروف مقطعة بدأت بها أعداد من سور القرآن الكريم ، واختلف المفسرون في بيان معناها ، وعلامة تدل ، وذكرنا هذا في تفسير سورة الرعد ، ولا نريد أن نعيد ما قلناه هناك^(١) .

وخلاصة ما رجَّحه المفسرون : أنَّ هذه الحروف المقطعة : ﴿المر﴾
﴿كهيعص﴾ ﴿طسم﴾ : هذه الحروف التي ينطق بها العرب ، هي التي جاء بها القرآن ، الذي أعجزكم أن تأتوا بحديثٍ مثله ، أو بعشر سور مثله مفتریات ، أو بسورة مثله ، والقرآن مؤلف من هذه الحروف ، فكأنَّ هذه الحروف إشارة إلى الإعجاز القرآني .

(١) ينظر ما قلته عن الأحرف المقطعة في أول (تفسير سورة الرعد) ص ٦٥ - ٦٨ .

ما الذي أعجزكم أيها العرب ، وأنتم فرسان البلاغة ، وأنتم رجال الشعر والأدب والبيان ، ما الذي أعجزكم أن تأتوا بمثل هذا القرآن ، الذي تحدّاكم محمّد أن تأتوا بسورةٍ من مثله؟ لا يمكن إلا أن يكون هذا القرآن من عند الله عزّ وجلّ .

انتقاء الحروف المقطّعة :

ولكن يبقى هناك أمر ؛ سلّمنا بأنّ هذا إشارة إلى الإعجاز القرآني ، ولكن لماذا اختار الله سبحانه وتعالى أن تبدأ هذه السورة بـ ﴿الر﴾ ، وليس بـ ﴿المر﴾؟ لماذا اختار لهذه : ﴿حم﴾ وهذه ﴿طس﴾ ؟

ففي القرآن سور بدأت بحرف واحد ، مثل : ﴿ق﴾ ، ﴿ن﴾ ، ﴿ص﴾ .

وأحياناً بحرفين ، مثل : ﴿حم﴾ ، ﴿طس﴾ ، ﴿طه﴾ ، ﴿يس﴾ .

وأحياناً ثلاثة حروف : ﴿الر﴾ ، ﴿طسم﴾ .

وأحياناً أربعة حروف : ﴿المر﴾ ، ﴿المص﴾ .

وأحياناً خمس حروف : ﴿حم﴾ ﴿عسق﴾ ، ﴿كهيعص﴾ .

فلماذا يختار لهذه السورة ثلاثة أحرف : ﴿الر﴾ ، ولم يختَر لها مثلاً ﴿طسم﴾ ؟ يظلُّ هنا أمر نقول فيه : الله أعلم بمراده ، مهما حاولنا أن نذكر الحكمة ، لا نستطيع أن نفسّر تخصيص سورة بحرف أو حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .

﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١)

أي : هذا كتاب أنزلناه إليك يا رسول الله ، هذا القرآن الذي تتلوه على الناس لتبيّنه لهم : ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ ، فالقرآن كتابٌ . للأسف هناك بعض المتعالمين الذين يعيشون في فرنسا وغيرهم ويدعون العلم باللسانيات^(١) ،

(١) علم اللسانيات : Linguistics هو العلم الذي يهتم بدراسة اللغات الإنسانية .

والأبيمستمولوجيا^(١) والثيولوجيا^(٢) ونحو ذلك ، يقولون : إنَّ القرآن نصٌّ شفهيٌّ ، وهذه الدعوى ليست صحيحة ، لأنَّ القرآن نصٌّ مكتوب ، الله سبحانه سمَّاه كتاباً كما سمَّاه قرآنًا . فهو قرآنٌ لأنه يُقرأ ، وكتاب لأنه يُكتب .

من أوَّل ما أنزل القرآن على محمد ﷺ ، كان هناك كُتَّاب للوحي ، وكان النبي ﷺ يأمرهم أن يسجلوه في الحال على ما تيسر لهم . لم يكن الورق متيسراً ، وإنما يكتبونه على العظام ، وعلى سَعَف النخل ، وعلى الرقاع ، وعلى الحجارة ، كُتَّاب متعددون يكتبونه ، ويبدأ الصحابة بحفظه .

فهو كتاب ، ولذلك كثيراً ما يسميه بالكتاب ، في سورة يونس : ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس: ١) .

وفي سورة هود : ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (هود: ١) .

وفي سورة الرعد : ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ١) .

وفي سورة الحجر : ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر: ١) .

وفي الحواميم والطواسين : ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعراء: ٢) ، (القصص: ٢) ، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر: ٢) ، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجن: ٢) ، (الأحقاف: ٢) ، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الزخرف: ٢) ، (الدخان: ٢) . فالقرآن كتاب ، وهذه حقيقة معروفة . كُتِبَ منذ عهد النبي ﷺ ، وإن لم يُجمع في مصحف واحد .

السُّرُّ في عدم جمعه في مصحف واحد :

لماذا لم يُجمع في مصحف واحد ؟

(١) الأبيمستمولوجيا : Obmistologia ، علم نظرية المعرفة .

(٢) الثيولوجيا : Theology علم العقائد .

لأنه كان يَنْزِلُ فقرة بعد فقرة ، جبريل رَوَّاحُ غَدَاءَ بآيات الله ، كيف يُكتب في مصحف وهو لم ينتهِ بعد؟ تنزل الآية ويقول له : ضَعَهَا في سورة كذا بعد آية كذا ، وهكذا ، فما دام القرآن ينزل لا يمكن أن يُوضَعَ في مصحف بين دَفَّتَيْن ، ولذلك بعد وفاة الرسول جُمع فعلاً في صُحُف ، السُّور كُلُّهَا مُرتَّبة ، ووُضِعَ في بيت أبي بكر حتى تُوفي ، ثم في بيت عمر بن الخطاب حتى تُوفي ، ثم في بيت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها .

جَمْعُ القرآن في عهد أبي بكر :

روى البخاري في صحيحه ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إليَّ أبو بكر : إنَّ عمر أتاني ، فقال : إنَّ القتل قد اسْتَحَرَّ بقرء القرآن ، وإني أخشى أن يستحَرَّ القتل بالقرءاء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .

فقلتُ لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟

قال عمر : وهو والله خير . فلم يزل يراجعني حتى شَرَحَ الله صدري لذلك ، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فَتَتَّبِعُ القرآن فاجمعه .

فوالله لو كَلَّفُونِي نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل عليَّ ممَّا أُمِرَني به من جمع القرآن .

قلتُ : كيف تفعَلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال : هو والله خير . فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر . فَتَتَّبِعُ القرآن أجمعه من العُسْب ، واللَّخَاف^(١) ،

(١) العُسْب : جريد النخل ، جمع عَسِيب . واللخاف : الحجارة البيض العريضة الرقيقة ، جمع لَخُفَّة . انظر : الفائق (٤٣١/٢) .

وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ... ﴾ (التوبة: ١٢٨، ١٢٩) ، حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر^(١) .

جَمَعَ الْقُرْآنَ فِي عَهْدِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

ثم لما اختلف الناس في القراءات ، لدخول كثير من العجم في الإسلام ، ونتيجة الأحرف التي أنزل بها القرآن ، وكذلك اختلاف لغات القبائل بعضها مع بعض ، وهذا يقول : قرآني أصح من قرآنك ، وقراءتي أصح من قراءتك .

فجمع عثمان في خلافته الناس على مصحف واحد باستشارة الصحابة رضي الله عنهم وبإجماعهم ، وهو ما يُسمى بـ(مصحف الإمام) ، بالرسم العثماني ، وهو رسم يصلح للقراءة بالقراءات العشر .

ولا زال القرآن الذي كُتب في عهد عثمان ، وبإقرار الصحابة جميعاً ، لا زال هو الذي نقرؤه الآن ، فهو كتاب الله .

هل الكتاب غير القرآن ؟

نحن في أصول الفقه ، وفي الفقه نقول : مصدرنا الأول : الكتاب والسنة ، أو الكتاب ثم السنة ، نقول : الكتاب . حتى قلماً نقول القرآن . هنا يقول الله عز وجل : ﴿ كِتَابٌ ﴾ (إبراهيم: ١) ، وهل الكتاب غير القرآن ؟

زعم بعضهم ذلك ، مثلما فعل مهندس سوري ألف كتاباً قال فيه : الكتاب شيء ، والقرآن شيء آخر ، والذكر شيء آخر ، والفرقان شيء آخر . وقال : الفرقان من خصائصه كذا ، والذكر كذا ، والقرآن كذا^(٢) !!

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٩١) ، وأحمد (٢١٦٤٤) ، والترمذي في تفسير القرآن (٢٨٣/٥) ، عن زيد بن ثابت .

(٢) وقد جمع شبهاته في كتابه الذي سماه : (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة) .

وهذا كَذِب ، الكتاب هو القرآن ، والقرآن هو الكتاب ، الله تعالى يقول : ﴿ حَمِّمٌ ﴾^(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ (الدخان: ١-٣) .
 ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ : أي الكتاب الذي هو القرآن ، ﴿ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكََةٍ ﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿ .
 وفي سورة يوسف : ﴿ الرَّتِّلَ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ١، ٢) . ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أي : الكتاب ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ .
 وفي سورة الزخرف : ﴿ حَمِّمٌ ﴾^(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف: ١-٣) .

وفي سورة فُصِّلَتْ : ﴿ حَمِّمٌ ﴾^(١) تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (فصلت: ١-٣) ، كتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، ففي نفس الآية ذكر الكتاب والقرآن .

فهؤلاء المتعلمون الذين جاءونا على آخر الزمن ، وجاءوا بما لم يقل به عالمٌ طوال أربعة عشر قرناً ، ويزعمون أنهم الذين يفهمون القرآن وحدهم ، جاءوا بقرآن جديد غير القرآن الذي فهمه محمد ﷺ ، والصحابة !! هم فهموا ما لم يفهمه رسول الله ﷺ !!

القرآن هو الكتاب ، والكتاب هو الذكر ، يختلف المفهوم ويتفق الماصدق^(١) ، كما نقول في علم المنطق ، يعني : الأسماء لها مفهومات مختلفة ، ولكن تصدق على شيء واحد ، فمثلاً السيف له أسماء كثيرة : السيف ، الحسام ، الصَّارم ، البتَّار ، كلُّ هذه الأسماء لها معنى ، ولكن هذا كله هو الماصدق . والموضوع واحد ، فالذكر هو القرآن ، والكتاب هو القرآن ، والفرقان هو القرآن .

(١) يطلق لفظ (المفهوم) في اصطلاح المناطقة على مجموعة الصفات والخصائص المشتركة بين الأفراد التي تميزهم عن غيرهم .
 ويطلق لفظ (الماصدق) على مجموع الأفراد الذين يشتركون في تلك الصفات .

ونجد ذلك في سياق واحد ، فالله تعالى يقول في سورة فُصِّلَتْ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ - أي : الذكر - لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢). ثم قال بعدها : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ - أي : الكتاب أو الذكر - قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ (فصلت: ٤٤) ، فالذكر هو الكتاب وهو القرآن .

هؤلاء الذين يأتوننا بأشياء لا دليلَ عليها ولا يقوم عليها برهان قطعي ، يخالفون الأمة كلها ، يخالفون عصور الأمة ، يخالفون المفسرين والفقهاء ، والمُحدثين والمتكلمين ، واللغويين وكل علماء الأمة ، يأتي هؤلاء ليخالفوهم ويزعموا أنهم هم الذين يعرفون الصواب ، ويملكون الحقيقة وحدهم .

أسماء القرآن وأوصافه :

ونقل الإمام الزركشي عن أبي المعالي عُرَيْزِي بن عبد الملك المعروف بشَيْذَلَةَ في كتابه (البرهان) : (اعلم أن الله سَمَّى القرآن بخمسة وخمسين اسماً : سَمَاءً كِتَابًا ومبينًا في قوله : ﴿ حَمْدٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ ﴾ (الزخرف: ٢، ١) ، (الدخان: ٢٠، ١).

وقرآنًا وكريمًا في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة: ٧٧) .

وكلامًا : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ (التوبة: ٦) .

ونورًا : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤) .

وهدى ورحمة : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (لقمان: ٣) .

وفرقانًا : ﴿ نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ (الفرقان: ١) .

وشفاء : ﴿ وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ (الإسراء: ٨٢) .

وموعظة : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾

(يونس: ٥٧) .

وذكرًا ومباركًا : ﴿ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ (الأنبياء: ٥٠) .
 وعليًا : ﴿ وَإِنَّا فِي أَمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٌ ﴾ (الزحرف: ٤) .
 وحكمة : ﴿ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ﴾ (القمر: ٥) .
 وحكيما : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ (يونس: ١) .
 ومهيمنًا : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨) .
 وحبلًا : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٠٣) .
 وصراطًا مستقيماً : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٥٣) .
 وقيماً : ﴿ قِيَمًا يُنذِرُ ﴾ (الكهف: ٢) .
 وقولاً فصلاً : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ (الطارق: ١٣) .
 ونبأً عظيمًا : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿ (النبا: ٢١) .
 وأحسن الحديث ومثاني ومتشابهًا : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا
 مَثَانِي ﴾ (الزمر: ٢٣) .
 وتنزيلًا : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٢) .
 وروحًا : ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢) .
 ووحياً : ﴿ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾ (الأنبياء: ٤٥) .
 وعربياً : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف: ٢) .
 وبصائر : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ ﴾ (الأعراف: ٢٠٣) .
 وبيانًا : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٣٨) .
 وعلمًا : ﴿ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (البقرة: ١٤٥) . وحقًا : ﴿ إِنَّ هَذَا
 لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (آل عمران: ٦٢) .

وهادياً : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي ﴾ (الإسراء: ٩) .
 وعجباً : ﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ (الجن: ١) .
 وتذكرة : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ ﴾ (الحاقة: ٤٨) .
 والعروة الوثقى : ﴿ أَسْتَمْسِكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .
 وصدقاً : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ (الزمر: ٣٣) .
 وعدلاً : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (الأنعام: ١١٥) .
 وأمرًا : ﴿ ذَلِكَ أَمْرٌ اللَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ (الطلاق: ٥) .
 ومنادياً : ﴿ يُنَادِي لِلْإِيمَنِ ﴾ (آل عمران: ١٩٣) .
 وبشرى : ﴿ هُدًى وَبُشْرَى ﴾ (النمل: ٢) .
 ومجيداً : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴾ (البروج: ٢١) .
 وزبوراً : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ،
 وبشيراً ونذيراً : ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا
 وَنَذِيرًا ﴾ (فصلت: ٤، ٣) .
 وعزيزاً : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ (فصلت: ٤١) .
 وبلاغاً : ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾ (إبراهيم: ٥٢) .
 وقصصاً : ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (يوسف: ٣) ،
 وسماء أربعة أسماء في آية واحدة : ﴿ صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿٢٦﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾
 (عبس: ١٣، ١٤) انتهى^(١) .

(١) أسماء القرآن الأساسية أربعة : (القرآن ، والكتاب ، الفرقان ، الذكر) وبقية ما نقله
 الزركشي هي أوصاف لهذه الأسماء . انظر : البرهان للزركشي (١/ ٢٧٣ ، ٢٧٤) .

إنزال الكتاب :

﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ (إبراهيم: ١)

أنزلناه : الله سبحانه وتعالى يتحدث عن نفسه بلغة التعظيم ، ومن أعظم من الله؟ القرآن يقول دائماً : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ (يوسف: ٢) ، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُ ﴾ (الحجرات: ١٣) ، لا يقول : أنا خلقتكم . وإنما يقول : ﴿ إِنَّا ﴾ ، سبحانه هو خالق الخلق ، ومالك الملك ، ومُدبّر الأمر .

والتنزل عادةً يكون حركةً من أعلى إلى أسفل ، والقرآن نزل من السماء إلى الأرض ، بل نزل من اللوح المحفوظ من أعلى العلى إلى هذه الأرض ، من الله إلى الخلق ، والله سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٤) ، القرآن وصفه الله بأسمائه الحسنی .

العليّ الحكيم من أسماء الله ، ولذلك القرآن وُصف بأنه ﴿ عَلِيٌّ ﴾ ، وبأنه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ وبأنه مجيد ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ (البروج: ٢١) ، وهو عزيز ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ (فصلت: ٤١) . وهو كريم ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة: ٧٧) وهو نور ﴿ وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤) وهو عظيم ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (الحجر: ٨٧)

كيفية نزول القرآن الكريم :

فما معنى : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾؟ أنزلناه من اللوح المحفوظ ، من أم الكتاب إلى السماء الدنيا؟ هكذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما ، فيما صح عنه من عدة طرق أنه قال : أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملةً واحدةً ، ثم فُرق في السنين . قال : وتلا هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (الواقعة: ٧٥) ،

قال : نزل متفرقاً : أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا^(١).

وابن عباس لا يمكن أن يقول هذا الكلام من رأيه ، كيف يعرف هذا ، وهذا من أنباء الغيب؟ ولذلك قالوا : إذا قال الصحابيُّ رأياً أو تفسيراً لا مجال للرأي فيه ، ولم يكن ممن عُرِف بالأخذ عن أهل الكتاب ؛ اعتُبر هذا الحديث الموقوف على الصحابي في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ . ولذلك نحن نقول : إنَّ القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، واللييلة التي نزل فيها هي ليلة القدر ، ليلة نزول القرآن من السماء من أعلى عليين ، من أم الكتاب ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .

تفسير ابن عباس لكيفية نزول القرآن الكريم :

سُئل ابن عباس : كيف يكون القرآن نَزَلَ في ليلة القدر ، والقرآن نزل في رمضان ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (البقرة: ١٨٥)؟ القرآن نزل في رمضان ، وفي شوال ، وفي ذي الحجة ، والمُحَرَّم ، وصفر - ينزل طوال السنة - كيف ينزل في ليلة القدر؟ قال رضي الله عنه : أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا^(٢).

وبعض العلماء الذين لم يَرْضَوْا بهذا التفسير قالوا : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، يعني :

(١) رواه النسائي في الكبرى في فضائل القرآن (٧٩٩٠) ، والطبراني في الكبير (٣١٢/١) ، وفي الأوسط (١٤٧٩) ، والحاكم في التفسير (٢٢٢/٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في المجمع (١٤٠/٧) : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وفيه عمران القطان ، وثقه ابن حبان وغيره . وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات .

(٢) سبق تخريجه .

ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر ، يعني أول ما نزل : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: ١) ، ولذلك قال بعضهم : سبعة عشر من رمضان هي ليلة القدر^(١) .

نزول القرآن وتنزيلاته :

نحن نقبل ما جاء عن ابن عباس أن القرآن نزل أولاً إلى السماء الدنيا ، ثم بعد ذلك - بعد ما قُربَ من الأرض - أصبح ينزل حسب الوقائع والحوادث في حوالي ثلاث وعشرين سنة ، كلما حدثت حادثة ينزل فيها القرآن ، يُعلم الناس ويُجيب عن تساؤلاتهم ، ويحلُّ مشكلات المجتمع الجديد والأمة الجديدة التي يبنها رسول الله ﷺ ، على أسس قرآنية : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٣) ، ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (الإسراء: ١٠٦) .

الأول : إنزال من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .

الثاني : نزوله حسب الوقائع والحوادث ، وهو ما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ أي : نزله تنزيلًا حسب الوقائع ؛ لأن كلمة ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ معناها التفعيل ، وهو يفيد التكثير ، كثرة النزول ، مرة بعد مرة ، وحالة بعد حالة .

﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ، لم تُنشئه أنت ولم تصنعه ، بل أنزل عليك ، ليس لك منه إلا أن تتلقاه ﴿ سَنَقْرُؤُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ (الأعلى: ٦) .

وتحفظه وتبلغه إلى الأمة : ﴿ يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾

(المائدة: ٦٧) .

وتبينه للناس : ﴿ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل: ٤٤) .

(١) رواه عبد الرزاق في الصيام (٧٦٩٧)، وابن أبي شيبة في الصلاة (٨٧٧٢)، عن ابن مسعود موقوفا عليه .

وتطَبِّقه عليك ، لأنَّ بيانك ليس بمجرَّد القول ولكن بالعمل ، عليك أن تُبَيِّن هذا القرآن وتطَبِّقه ، لأنك الأسوة لهذه الأمة .

عدم توقع الرسول نزول القرآن عليه :

فالرسول أنزل إليه هذا الكتاب ، ليس له دَخْلُ فيه ، وكما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ (القصص: ٨٦) ، ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢) .

أنزل إليه الكتاب ، وما كان يتوقَّع ، ولذلك حينما نزلت الآيات الأولى : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: ١) ، حينما ضمَّه جبريل وغطَّه غطاءً قوياً ، فقال : اقرأ .

قال : « ما أنا بقارئ » . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . فقال : اقرأ .

قلتُ : « ما أنا بقارئ » . فأخذني فغطني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . فقال : اقرأ .

فقلتُ : « ما أنا بقارئ » . فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني .

فقال : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (العلق: ١-٣) ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : « زملوني زملوني » . فزملوه حتى ذهب عنه الروح^(١) . ما كان يتوقَّع هذا !

(١) جزء من حديث متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (٣) ، ومسلم في الإيمان (١٦٠) ، كما رواه أحمد (٢٥٨٦٥) ، عن عائشة .

أُنزل إليه وما كان يرجوه وما كان يتوقَّعه ، ما له دخل فيه ، ولذلك أحياناً يُبطئ عليه الوحي ، لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، ينتظر حتى يأتيه الوحي .

عالمية الرسالة المحمدية :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

الأنبياء جاؤوا ليخرجوا أقوامهم من الظلمات إلى النور كما قال الله تعالى لموسى : ﴿ أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ .

ومحمدٌ ﷺ لم يبعث لقومه خاصة ، وإنما بعث إلى الناس كافة ، وهذا من خصائصه ﷺ . عدَّ النبيُّ ﷺ خصائصه ، فقال : « وكان النبيُّ يبعثُ إلى قومه خاصة ، ويُبعثُ إلى الناس عامة »^(١) . ولذلك هنا لم يقل : (لتُخرج قومك) ، وإنما قال : ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ ، العرب والعجم ، أهل الشرق وأهل الغرب .

الحكمة من جمع الظلمات وإفراذ النور :

جمع الظلمات وأفرد النور ، لم يقل : من الظلمة إلى النور ، ولم يقل : من الظلمات إلى الأنوار ، لماذا ؟ لأنَّ الظلمات تُمثِّل الضلالات ، وضلالات الناس وأباطيلهم شتى ، ليس هناك باطل واحد ، هناك ألف باطل وباطل ، إنما الحقُّ واحد لا يتعدَّد . أبواب الضلالات كثيرة ، ولكن باب الهدى واحد ، المضلُّون كثيرون ، ولكن الهادي واحد ، هو الله .

ولذلك تعدَّدت الظلمات كما ذكرت في القرآن الكريم : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (البقرة: ٢٥٧) ، ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التيمم (٣٣٥) ، ومسلم في المساجد (٥٢١) ، كما رواه أحمد (١٤٢٦٤) ، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢) ، عن جابر بن عبد الله .

عَبْدِهِمَ ءَايَتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿٩﴾ (الحديد: ٩) ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأَوَّلِ أَلْأَلْبَسُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (الطلاق: ١٠، ١١) ، فالظلمات كثيرة ، والباطل كثير الألوان والأنواع ، ولكن الحق واحد ، ومصدر الحق واحد هو الله عز وجل .

كثرة الظلمات وتراكمها :

النَّاسُ ضَلُّوا ضَلَالَاتٍ كَثِيرَةً ، عَبْدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً ، لَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ ، وَلَا تُعْطِي وَلَا تَمْنَعُ ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تَمْلِكُ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا .

الناس ضلُّوا سواءَ السبيل في عقائدهم ، في عباداتهم ، في معاملاتهم ، وأدوا البنات ، قتلوا أولادهم من إملاق أو خشية إملاق ، شربوا وسكروا ، ارتكبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، اقترفوا المظالم ، افترس الأقوياء الضعفاء ، تجبر السادة على العبيد ، كانت الدنيا هكذا .

فالغاية من إنزال القرآن وبعثة الرسول هي إخراج الناس - كلِّ الناس - ليس إخراج قريش وحدها ، ولا العرب وحدهم ، بل إخراج الناس من الظلمات إلى النور .

الحكمة من إنزال الكتاب على النبي ﷺ :

صرَّح هنا بالهدف من إنزال هذا الكتاب إلى محمد ﷺ ، لماذا أنزل الله إليه هذا الكتاب؟ قال : ﴿ لِّيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ، أي : لِيَهْدِيَ النَّاسَ بِهَذَا الكتاب ، الذي هو أعظم هَادٍ لِلنَّاسِ مِنْ ضَلَالَاتِهِمْ .

فجاء محمد عليه الصلاة والسلام ، وأوحى الله إليه هذا الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

هذه مهمة هذا الكتاب ، ومهمة الرسول الذي أنزل إليه هذا الكتاب : أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أن يعلمهم من جهالة ، وأن يهديهم من ضلالة ، يخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، من ظلمات الرذيلة إلى نور الفضيلة ، من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، من ظلمات الانحراف إلى نور الاستقامة ، من ظلمات الباطل إلى نور الحق ، من ظلمات الطاغوت إلى نور الله عز وجل ، وهو أساس النور في هذا الوجود كله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النور: ٣٥) .

على الرسول أن يخرج الناس من الظلمات : ظلمات الاعتقاد ، وظلمات الفكر ، وظلمات السلوك ، وظلمات التقاليد ، وظلمات الأنظمة الجاهلية ، والقوانين الجاهلية ، ليخرجهم من هذه الظلمات كلها إلى نور الإسلام بإذن الله عز وجل .

﴿ لِيُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ ، الذي يقوم بمهمة الإخراج هو محمد عليه الصلاة والسلام ، عليه أن يقوم بالجهد لإخراج الناس ، فهم لن يخرجوا بمجرد أن يتلو عليهم القرآن ، فهم بحاجة إلى جهد جهيد لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، يحتاجون إلى دعوة ، إلى ترغيب ، إلى ترهيب ، إلى تشويق ، إلى تخويف ، إلى تربية ، إلى متابعة .

وهكذا كان عمل النبي ﷺ ، يعايش الناس ، كان لهم أسوة حسنة في كل أمور حياتهم ، يجدون في حياته الأسوة الحسنة لهم : الشاب يجد أسوته في حياة محمد عليه الصلاة والسلام وسيرته ، والمتزوج يجد أسوة في سيرته ، والعزب يجد أسوة فيه حينما كان عزباً ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والمسلم والمجاهد ، كل الناس يجدون أسوتهم فيه عليه الصلاة والسلام . والأنبياء جاؤوا ليخرجوا أقوامهم من الضلالة إلى الهداية^(١) .

(١) سيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل في تفسيرنا لقول الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ .

دلالة قوله سبحانه : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ :

محمدٌ عليه الصلاة والسلام هو الذي عليه أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ ، يعني بتوفيق الله سبحانه وتعالى وبتيسيره .

فلولا أن الله يشدُّ أزرَكَ ، ويوفقَكَ ، ويساعدك ما استطعتَ أن تهديَ أحداً ، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (القصص: ٥٦) .

أنتَ عليك أن تبيِّن ، وعليك أن تتلوَ القرآن ، وعليك أن تعملَ لهداية الناس ، ولكن بدون توفيق الله لن يهتديَ أحدٌ . ولذلك قال : ﴿ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١) .

دلالة كلمة الرب في القرآن الكريم :

ولكنَّ القرآن هنا اختار أن يكون بإذن ربهم ، وكلمة الرب قد ذكرت في القرآن كثيراً مضافة مثل : ﴿ رَبُّكَ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا ﴾ ، ﴿ رَبِّكُمَا ﴾ ، ﴿ رَبِّكُمْ ﴾ ، ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ ، ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ، ﴿ رَبُّ الْعِزَّةِ ﴾ ، ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ ، ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ ، ذكرت في القرآن أكثر من تسعمائة وخمسين مرة ، وهي تدلُّ على السيادة المطلقة ، وتدلُّ على المِلْكِيَّة ؛ فالعرب تقول : ربُّ الدار ، وربُّ الدابة : يعني مالِهَا .

وتدلُّ على الرعاية والتربية ، رعاية الشيء حتى يبلغ كماله المقدَّر لنوعه ، فالله هو الراعي ، هو المُربي ، هو الذي يرعى هذا الكون ، ويرعى الإنسان ، ويرعى كلَّ شيء في هذا الوجود حتى يبلغ كماله المقدَّر لمثله .

صراطُ العزيزِ الحميد :

﴿ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

العلماء يقولون : هذه بدل من كلمة : ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ بدل كلٍّ من كلٍّ ، أي :

تُخرجهم من الظلمات إلى النور ، ما هو هذا النور؟ إنه يتمثل في ﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، تنقل الناس من الضلالات ، من الأباطيل ، من المفاسد ، من الرذائل إلى النور ، أي : إلى صراط الله العزيز الحميد .

إضافة الصِّراط في القرآن الكريم :

الصِّراط هو : الطريقُ الواسع ، الذي ذكره الله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٦، ٧) ، الصِّراط المستقيم هو : صراط الله ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ٥٢، ٥٣) .

وأحياناً يضاف إلى سالكيه : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفاتحة: ٧) ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وأحياناً يضاف إلى رسول الله ﷺ الداعي إليه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام: ١٥٣) .

وأحياناً يضاف إلى مَنْ شَرَعَ هذا الصِّراط ، وإلى غاية هذا الصِّراط ، لأنَّ لهذا الصِّراط غاية ؛ أن يوصلَكَ إلى الله : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ (النجم: ٤٢) ، إلى رضى الله ورضوان الله ، إلى مَثُوبَةِ الله ، وهذا غاية الغايات .

هناك طريق يوصلك إلى سَخَطِ الله ، إلى عذاب الله ، إلى جهنم وبئس المصير ، هذه سُبُلٌ على رأس كلِّ منها شيطان يدعو إليه^(١) ، أما الصِّراط فهو الذي يوصلك إلى الله ، إلى رضوانه ومثوبته .

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (٤١٤٢) ، والنسائي في الكبرى (١١١٧٤) ، وابن حبان في المقدمة (٧) بإسناد حسن ، والحاكم (٣٢٤١) وصححه عن ابن مسعود ولفظه : « خط لنا رسول الله ﷺ خطا فقال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله فقال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ (الأنعام: ١٥٣) .

إضافة الصِّراط إلى إسمين من أسمائه الحسنى :

القرآن اختار هنا بدل ما يقول : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ ، كما قال في سورة الشورى :
﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ٥٢، ٥٣) ، أضاف الصِّراط إلى بعض أسمائه الحسنى :
﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، واختار هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله
الحُسنى لدلالاتهما ؛ لأنَّ أحدهما يدلُّ على العِزَّة : القوة والغلبة ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ :
المنيع الذي لا يغلبه شيء ، ولا يقهره شيء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في
السماء .

والآخر يدل على الحمد والثناء ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ : أي المحمود على كلِّ حال ،
والمحمود بكلِّ لسان ، المحمود في ذاته ، والمحمود في صفاته ، والمحمود في
أفعاله .

فالاسم الأول يُمثِّل : أسماء الجلال ، والاسم الآخر يُمثِّل : أسماء الجمال ، والله
تعالى أسماءُ الجلال وأسماءُ الجمال : ﴿ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾
(الرحمن: ٧٨) .

الجلال يُمثِّل القدرة والقوَّة ، والجمال يُمثِّل الإحسان والرحمة . . . فالله سبحانه
وتعالى له الملك وله الحمد .

﴿ الْعَزِيزِ ﴾ يمثِّل الملك ، و﴿ الْحَمِيدِ ﴾ يمثِّل الحمد .

هناك أناس لهم الملك ، ولكن ليس لهم الحمد ، لهم الجبروت ، ولهم التسلُّط
على عباد الله ، يقهرون الضعفاء ، ويتسلطون على المساكين والفقراء ، لكنهم ليسوا
محمودين .

الله وحده هو الذي له الملك وله الحمد : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التغابن: ١) .

سُنة القرآن في إضافة اسم من أسماء الحمد بعد اسم (العزیز) :

﴿ صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . . دائماً القرآن إذا ذُكر (العزیز) يذكر اسماً من أسماء الحمد ، أي من أسماء الجمال . وهنا ذكر ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، وبعد آيتين سيذكر : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، في قوله : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، وأكثر ما قُرَنَ باسم (العزیز) في القرآن (الحكيم) ، ولكن أيضاً يوجد : ﴿ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (المالك: ٢) ، و﴿ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (ص: ٦٦) ، و﴿ الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ ﴾ (ص: ٩٠) ، و﴿ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الروم: ٥) ، ﴿ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٩) ، ﴿ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (يس: ٣٨) ، . . . وهكذا القرآن يقرن دائماً اسم العزیز باسم من أسماء الحمد والجمال .

وَمَنْ يَتَأَمَّلْ هذه الأسماء التي اقترنت في القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، يجد أن هناك حكمة في ربط اسم بقرينه . . قد تكون الحكمة واضحة وقد تحتاج إلى تأمل .

سرُّ اقتران اسم العزیز بالحكيم :

بعضُ الناسِ توقَّف عند قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٨) .

ربما توقَّع بعض الناس (وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم) لا . . هنا ﴿ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، إذا غفرتَ لَن تَغْفِرَ عَنْ ضَعْفٍ ، تغفر عن عِزَّةٍ وَقُوَّةٍ ، ولا تضع الأشياء في غير موضعها ، بل أنت حكيم ، تغفر لمن يستحقُّ المغفرة .

كذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٣) . هنا ذكر العِزَّة والحكمة ؛ لأنَّ تأليف القلوب المتنافرة أمرٌ عسير . كيف تُؤَلَّف بين قلوب الناس ولهم أهواء شتى؟ وكلُّ واحد مملكة في نفسه ، له مطالبه وله

خُصُوصِيَّاتِهِ ، كَيْفَ تُؤَلَّفُ هَذِهِ الْقُلُوبُ ؟ إِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى عِزَّةٍ وَإِلَى حِكْمَةٍ أَيْضًا :
﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٣) .

مَنْ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ؟

﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

هناك قراءتان : قراءة تقول : (الله) بالرفع ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ؛ أي : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ﴾ ، هو الله ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وقراءة على الجرِّ ليس على الرفع : ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، بدل ممَّا قبله : ﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قراءة حفص التي نقرأ بها نحن هي بالجر : ﴿ اللَّهُ ﴾ .

لفظ الجلالة هذا ، العَلَمُ على الذات الإلهية ، هذا الاسم الكريم الذي تكرر في القرآن ألفين وستمئة وسبعاً وتسعين مرة .

عناية القرآن بالثناء على الله عز وجل :

انظر كيف يهتم القرآن بشأن الألوهية ، وبالثناء على الله عز وجل .

لا يوجد كتاب في الدنيا يُشني على الله كما يُشني عليه القرآن ، من أوَّل آية فيه :
﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢، ١) ، إلى آخر سورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ (الناس: ١-٣) .

اقرأ في الكتاب المقدس ، اقرأ في التوراة وأسفارها الخمس ، كم فيها من الثناء على الله ، كم ذُكر فيها لفظ الجلالة؟! نادراً جداً ما تجد ذلك . وتجدده يقول : رب

إسرائيل أو رب الجنود . ليس رب العالمين ، ولا رب الناس ، أو ملك الناس ،
أو إله الناس .

تكرّر لفظ الجلالة وأسماء الله الحُسنى وصفاته وأفعاله في القرآن :

لكن في القرآن لفظ الجلالة (الله) تكرّر في القرآن هذه المرات ، أيضاً لفظ
الرب تكرّر نحو : تسعمائة وبضعاً وخمسين مرة ، غير الأسماء الأخرى : العزيز ،
والحميد ، والحكيم ، والسميع ، والبصير ، واللطيف ، والرحيم ، والخبير . . . إلى
آخره ، مئات المرات ، غير الأفعال مثل : الذي يخلق ويرزق ، ويعطي ويمنع ،
ويبسّط ويقدر ، ويعزّز ويذلّ ﴿ تُوْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ
مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٦) ،
وخلق السماوات والأرض ، وفعل ، وفعل . كلُّ هذا في هذا القرآن العظيم .

سرُّ تقديم الخبر في قوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، هذا الملكِ بعلوِّه
وسفليّه الله .

وكلمة ﴿ لَهُ ﴾ مُقدّمة هنا ، الذين يعرفون اللغة العربية وأسرارها يقولون : لماذا
قدّم ﴿ لَهُ ﴾ ؟ لماذا قدّم الخبر ﴿ لَهُ ﴾ في قوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ، ولم
يقُل : (ما في السماوات وما في الأرض له) ؟

وذلك ليفيد الحصر ، أي : له لا لغيره ، ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾
له حصراً ، لا لأحدٍ ممَّنْ أشركوا به من دون الله ، ليس لِمَنّة ، ولا للات ،
ولا للعُزَى ، ولا لهبل ، ولا لآلهة اليونان ، ولا لآلهة الرومان ، ولا لآلهة البوذيين ،
أو الهندوسيين ، أو الوثنيين في أنحاء الأرض ، ليس لهذه الآلهة المزيّفة شبرٌ

ولا فِتر^(١) ولا سنتيمتر واحدٌ لا في السماوات ولا في الأرض ، كلُّ ما في السماوات وما في الأرض لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ: ٢٢) .

لا يملكون مثقال ذرة ، ولا حتى بالشراكة يشتركون فيه ، وليس له جلٌ وعلا ، ظهيرٌ ولا معينٌ في هذا . المَلِكُ والمُلْكُ كُلُّهُ لله ، له ما في السموات وما في الأرض مَلِكًا ومَلَكًا ، المَلِكُ له ، والمُلْكُ له ؛ قد تملك الشيء ، ولا تملك التَّصَرُّفَ فيه ، فله المَلِكُ ، ولكن ليس له المُلْكُ ، بينما مَنْ له المَلِكُ وله المُلْكُ هو الله سبحانه وتعالى ، ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ١٠٧) .

السماوات والأرض في القرآن الكريم :

السماوات والأرض تَكَرَّرَتْ في القرآن : مائة وتسعين مرَّةً ، ذُكِرَتِ الأرض أحيانًا وحدها ، وذُكِرَتِ السماء أحيانًا وحدها ، إِنَّمَا السماوات بهذا الجمع والأرض ذُكِرَت : مائة وتسعين مرَّةً ، ودائمًا السماوات مجموعة والأرض مفردة .

لم يذكر في القرآن أَنَّ الأرض سبع ، كما في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (المؤمنون: ٨٦) ، وفي قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾ (الملك: ٣) ، حتى إِنَّ سيدنا نوحًا عليه السلام قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (نوح: ١٥، ١٦) .

(١) قال الجوهري : الفتر : هو ما بين طرف السبابة والإبهام إذا فتحتها . الصحاح : مادة (فتر)

المراد بالمثلية في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ :

فالسماوات ذكرت في القرآن أنها سبعة ، أما الأرض ، فلم يأت في القرآن إلا آية واحدة في آخر سورة الطلاق تقول : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ (الطلاق: ١٢) . مثلهن في ماذا؟ في العدد؟ في التكوين مثلاً؟ في انطباق القوانين الكونية عليهما؟ لم يقل لنا ، ولم يأت حديث يقول : إن الأرض سبع إلا حديث : « اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أظللن »^(١) .

وأما الحديث الآخر : « من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوّقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين »^(٢) لا يدل على أن الأرضين التي خلقها الله سبعة .

هناك بعض علماء الجيولوجيا يقولون : إن للأرض سبع طباق ، فهذا يمكن ، إذا كان معنى الطباق : طبقة بعد طبقة بعد طبقة .

ما هي السماوات السبع ؟

إنما السماوات هذه التي تعلونا ولا نرى منها إلا هذا اللون الأزرق ، ولا نعرف ماذا فيها ، أو ماذا وراءها ، نعم فيها الشمس والقمر الذي يستمد نوره من الشمس ، وفيها الكواكب السيارة : زحل ، وعطارد ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة . . .

(١) رواه النسائي في الكبرى كتاب السير (٢٥٦/٥) ، والطبراني في الكبير (٣٣/٨) ، وابن حبان في الصلاة (٢٧٠٩) ، وقال الأرئوط : إسناده حسن ، والحاكم في الجهاد (١٠٠/٢) وصححه ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الحج (٢٥٢/٥) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥/١٠) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عطاء بن أبي مروان وأبيه وكلاهما ثقة ، وكذا قال المنذري في الترغيب والترهيب (١٧١٨) ، وحسن إسناده الضياء في المختارة (٧٢/٨) ، وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٤٧/١) عن صهيب .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ، ومسلم في المساقاة (١٢٣٠) ، وأحمد (١٦٣٣) ، عن سعيد بن زيد .

وهذه الكواكب في هذه السماء الدنيا ، وحتى إن بعض العلماء مثل الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى^(١)، يقول : كلُّ ما نرى من النجوم التي يأتي إلينا ضوءها بعد ملايين من السنين الضوئية - كما يقول علماء الفلك - كلُّ هذه في السماء الدنيا ، واستدلَّ على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ﴾ (الملك: ٥) ، أي : بالنجوم ، فكلُّ هذه النجوم ، وكلُّ هذه الأجرام ، وكلُّ هذه الكواكب في السماء الدنيا ، ولكن ماذا بعد السماء الدنيا؟ لا نعرف عنها شيئاً ، هذا ملك واسع ، الله أعلم به .

جاء في دعاء الرفع من الركوع : « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماوات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد »^(٢) . فهناك أشياء بعد السماوات والأرض الله أعلم بها ، كما جاء في القرآن : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣) ، وفي آية أخرى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الحديد: ٢١) ، فإذا كان عرض الجنة عرض السماء والأرض فما هو طولها؟ ماذا يكون؟ لا يعلمه إلا الله عز وجل .

هذا الكون الواسع الكبير ، الذي يتصرّف فيه ويحكمه ويحكم كل ذرة فيه : هو الله ، ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وهذا يدلنا على تعظيم أمر الكتاب : ﴿ كَتَبْنَا نُزْلَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ﷻ الَّذِي لَهُ مَا فِي

(١) في مقال له في مجلة (الوعي الإسلامي) الكويتية بعنوان : ما هي السماء؟ العدد الخامس والثلاثين ، الصادر في محرم سنة ١٣٨٧هـ ، إبريل ١٩٦٧م

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٦) ، وأحمد (١٩١٠٤) ، وأبو داود في الصلاة (٨٤٦) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٧٨) ، عن ابن أبي أوفى .

الْأَسْمَانِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ ، فالعزيرُ الحميدُ ، هو الذي أنزل الكتاب ليهدي به الناس ، وليُخرجهم من الظلمات إلى النور على يدك يا محمد .

معنى كلمة (الويل) في القرآن :

﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

الويل : دعاء بالهلاك والعذاب .

هناك بعض المفسرين يذكر عند كلمة (ويل) : أنها وادٍ في جهنم . وهذا ليس تفسيراً للفظ ؛ كلمة (ويل) كلمة معروفة في اللغة العربية ، يعرفها المشركون ويعرفها المسلمون ، قبل أن ينزل القرآن وقبل أن يعرفوا جهنم ، والويل هو : الهلاك والعذاب .

ويلٌ لهم بمعنى : يا ويلهم ، إنما الذين يقولون : وادٍ في جهنم ، هذا ليس تفسيراً ، وإنما هو تمثيلٌ لبعض مفردات الويل ، أن لهم وادياً في جهنم ، إذا صحّت الأحاديث ، وما أظنّها صحيحة^(١) في هذا المعنى .

والعذاب للكافرين الجاحدين ، الذين لم يهتدوا بالكتاب المنزل ، لم يُخرجهم هذا الكتاب من الظلمات إلى النور ، لم يهتدوا إلى صراطِ العزيز الحميد ، بل كفروا به .

معنى الكفر :

ومعنى الكفر هو السُّر والتَّغطية ، إنهم غَطُّوا على الحقيقة ، طمسوا على

(١) ومنها : « ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرها » رواه أحمد (١١٧١٢) وقال مخرجه : إسناده ضعيف . والترمذي في الزهد (٢٣٨٣) وقال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث ابن لهيعة . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢١٣٦) .

الحقيقة باتباع أهوائهم ، لم ينظروا إلى النور ، ولكنهم غَشَوْا أعينهم فلم يروا هذا النور ، الكفر هو التغطية ، حتى كلمة (كَفَر) في اللغات الإنجليزية وغيرها تفيد معنى التغطية ، يغطون ويسترون الحقيقة ولا يرونها وهي واضحة أمامهم : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

مقابلة الكفر بالشكر :

الكفر أحياناً يقابل بالشكر ، وأحياناً يقابل بالإيمان ، فالكافرون هنا يعني : هم الذين كفروا النعمة ولم يشكروا نعمة الله ، أو الذين كفروا بالمنعم عز وجل .

فالكفر في القرآن يأتي على وجهين : أحياناً الكفر يقابل بالشكر ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان: ٣) ، وكما في سورة إبراهيم نفسها بعد آيات قليلة : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧) ، فقابل بين الشكر والكفر .

مقابلة الكفر بالإيمان :

وأحياناً يقابل بين الإيمان والكفر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ (البقرة: ٢٥٣) ، وكما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ (التغابن: ٢) .

دلالة كلمة الكفر عند الإطلاق :

فالكافرون هنا : هل هم الكافرون بنعمة القرآن وإنزال القرآن؟ أم الكافرون بالمنعم ، بالله عز وجل ؟

الظاهر أَنَّ كلمة الكافرين إذا أُطلقت في القرآن تعني الكفر المقابل للإيمان ، هذا هو الأظهر ، فهؤلاء كفروا كفراً لأنهم لم يؤمنوا بالله ، ولم يؤمنوا بكتابه ، ولم يؤمنوا برسوله ، فحقَّ عليهم العذاب .

العذاب الشديد للكفار في الآخرة :

﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ الويل - كما سبق - عذاب وهلاك ، وَيْلٌ لهم من عذاب شديد ، فَإِنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا عَذَابًا شَدِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فقد لَا يُعَذَّبُونَ فِي الدُّنْيَا ، فَكثِيرٌ مِنَ الْكَافِرِينَ يَنْجُونَ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا ، يُمَهِّلُهُمُ اللَّهُ إِلَى الْآخِرَةِ ، فَمَنْ شَأْنُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُمَهِّلَ وَلَا يُهْمَلَ ، كما قال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَأُمْلِيَ لَهُمْ^{٤٢} إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ (الأعراف: ١٨٢، ١٨٣) ، قد يُؤَخَّرُهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ . كما قال تعالى في هذه السورة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ^{٤٣} إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (إبراهيم: ٤٢) .

العذاب الحسي والمعنوي :

فالعذابُ المقصودُ هنا هو عذابُ الآخرة ، وهو أَخْزَى وَأَشَدُّ وَأَنْكَى مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا بِمَرَاتٍ وَمَرَاتٍ ، فالعذاب في الآخرة هو عذاب النار التي أَعَدَّهَا اللَّهُ ، ومعه عذاب الخزي والهوان ، كما قال سبحانه : ﴿ آخَسُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٨) ، وهذا نوعٌ مِنَ الْعَذَابِ الْمَعْنَوِيِّ بِجَوَارِ الْعَذَابِ الْحَسِيِّ .

اختلاف وَصْفِ عَذَابِ النَّارِ فِي الْقُرْآنِ :

عذاب النار ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ أَلْحَرِيقٌ ﴾ ، حسب

تعبيرات القرآن وَفَقَّ المقامات المختلفة ، هنا قال : ﴿ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ وأي : عذاب أشدَّ من عذاب النار؟ وليست أي نار .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » . قيل : يا رسول الله ، إن كانت لكافية! قال : « فَضَّلْتُ عليهنَّ بتسعة وستين جزءا ، كلهن مثل حرِّها »^(١) . إننا لا نتحمَّل لسعة من هذه النار ، كما قال الشاعر :

جسمي على الشمس ليس يَقْوَى ولا على أهـون الحـرارة
فكيف يَقْوَى على جحيم وَقَوْدُهَا النَّاسُ والحجارة؟

جاء في الحديث الصحيح ، أن النبي ﷺ قال : « يُؤْتَى بأَنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة - الذي عاش في النعيم والرفاهية والطيبات ، وما لذَّ وطاب من الطعام والشراب والنساء والخدم والحشم - فيصْبَغ في النار صَبْغَةً - يغمس في النار غمسة واحدة - ثم يقال : يا ابن آدم ، هل رأيت خيرا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول : لا والله يا رب »^(٢) . غمسة واحدة تُنسيه كلَّ ملذات الدنيا ، كلَّ ما أصابه من شهوات ، كلَّ ما جمعه من أموال ، كلَّ ما بناه من قصور ، بغمسة واحدة في النار ينسى كلَّ لذائذ الدنيا وطيباتها .

أسباب الضلال :

١ - استحبابُ الحياة الدنيا على الآخرة :

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾

مَنْ هم هؤلاء الكافرون ؟ ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ ،

(١) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥) ، ومسلم في الجنة وصفتها ونعيمها وأهلها (٢٨٤٣) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٧٢٦٦) ، وأحمد (١٣١١٢) عن أنس بن مالك .

ما الذي جعل هؤلاء الكافرين يَعْمُونَ عن النور وهو واضح أمامهم ، عن الحق وأدلتّه ، وهي كالشمس في رابعة النهار؟! ما الذي جعلهم يسيرون وراء الطاغوت ، ويكفرون بالله ويكفرون برسالاته ؟ ! سرُّ هذا أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، كانت الدنيا أكبر همّهم ، ومبلغ علمهم ، فاستحبوها على الآخرة ، جعلوا حبّها فوق حبّ الآخرة ، آثروا الدنيا على الآخرة ، وهذه هي مشكلة البشر إيثار الأولى على الآخرة : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (الأعلى: ١٦) ، ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ ﴿ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴾ ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى ﴾ ﴿ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ﴿ (النازعات: ٣٤-٣٩) ، ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ ﴿ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾

(القيامة: ٢٠، ٢١) .

ما موقف الناس في هذه الحالة؟ هما موقفان ، وهما صنفان لا ثالث لهما : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى ﴾ ﴿ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾

(النازعات: ٣٧-٤١) .

المعضلة هي إيثار الدنيا على الآخرة ، الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، كانت الدنيا فوق كل شيء عندهم .

سبب جحود هرقل لرسالة النبي ﷺ :

من قرأ صحيح البخاري وجد في أحاديثه الأولى - بعد حديث : « إنما الأعمال بالنيات » - حديث هرقل الذي وصّله رسالة النبي ﷺ يدعو فيها إلى الإسلام قائلاً له : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ﷺ ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من أتبع الهدى .

أما بعد : فإنني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين .

﴿يَا هَلْ أَلِكْتُبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤) ^(١).

كان هرقل رجلاً عاقلاً ، أحب أن يستوثق من صدق الرسالة التي بعث بها محمد ﷺ ، وقال : هاتوا لي ناساً من العرب ، فجاءوا له بأبي سفيان ، وكان في رحلة تجارية في ذلك الوقت ، جاءوا به ، فطلب يسأله عن النبي ﷺ أسئلة في غاية الدقة ، وأبو سفيان يجيب ، ويخشى أن يكذب فيؤثر عنه الكذب .

فقال هرقل : إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

ثم عرّض الأمر على رجال الدين : القسس والرهبان ، فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبي . فهاجوا عليه ، فقال لهم : إنني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت . بعد أن اقتنع أن محمداً رسول الله غلب الدنيا ، غلب حب ملكه على الدخول في الإسلام ، وبقي يحارب الإسلام ، ثم هزمه الإسلام بعد ذلك ، والحمد لله .

موانع الإيمان وأتباع الحق :

الذين حاربوا رسول الله ﷺ من مشركي قريش ، كانوا يعلمون أنه على حق ، ولكنه الكبر من ناحية ، والحسد من ناحية ، والتقليد الأعمى لأبائهم من ناحية أخرى .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (٧) ، ومسلم في الجهاد والسير (٤٧٠٧) ، كما رواه أحمد في المسند (٢٣٧٠) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧١٧) ، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير (١١٠٦٤) ، عن ابن عباس .

اليهود الذين وقفوا ضدَّ رسول الله ﷺ كان الحسد وحبُّ الدنيا وراء ذلك ؛ قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (البقرة: ١٠٩) .

٢- الصَّدُّ عن سبيل الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

لم يكتفوا بأن يكفروا في أنفسهم ، بل ظلُّوا يصدُّون غيرهم عن سبيل الله ، صدَّ عن سبيل الله بمعنى : منع الناس عن الدخول في دين الله ، صرَّف الناس عن الدخول في الإسلام ؛ كالذي يقف في الطريق يمنع الناس من السير فيه ، كقطَّاع الطريق الذين يقفون يمنعون الناس ، إلا إذا دفعت لهم إتاوة أو ما عندك أو غير ذلك ، فهذا صدَّ عن سبيل الله .

كما قال سيدنا شعيب عليه السلام : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِءِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (الأعراف: ٨٦) ، وكما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ (آل عمران: ٩٩) ، هؤلاء يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا .

يقول بعض المفسِّرين : يصدُّون أنفسهم ويصدُّون غيرهم . وإنما المعنى المراد هنا : يصدُّون غيرهم عن سبيل الله .

فعلُ صدَّ : يأتي في اللغة لازماً أو قاصراً ومتعدِّياً ، صدَّ بمعنى أعرض ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (النساء: ٦١) ، فهذا صدَّ قاصرٌ لازمٌ ، وصدَّ أي : أعرض .

هناك صدٌّ بمعنى منع الغير ، يعني يريد منع الناس من الدخول في الإسلام ، وإذا دخلوا في دين الله يفتنهم ويؤذيهم ويعذبهم ، كما فعل مشركو مكة بالمستضعفين ، عذبوا عمَّار بن ياسر وأباه ياسراً وأمه سميةً ، ومات أبوه ياسر وأمه سمية تحت العذاب ، عذبوا بلالاً وغيره من المسلمين ، فهؤلاء المشركون يصدُّون عن سبيل الله .

سبيل الله عزَّ وجلَّ :

سبيلُ الله هو الطريق الموصول إلى الله ، أي : إلى رضوان الله ، إلى مثوبة الله ، إلى جنة الله ، ثم هو سبيل الله لأنَّ الله هو غايته ، إنه يوصل إلى الله ، وإلى رضوان الله ، ولأنَّ الله هو الذي شرع هذا السبيل ، وهو الذي دعا إليه ، وهو الذي هدى إليه ، ولذلك نُسِبَ إليه ، فسبيلُ الله هو صراطُ الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿

(الشورى: ٥٢، ٥٣) .

هؤلاء يصدُّون عن سبيل الله ، عن الطريق الموصلة إلى الله ، وقفوا قطعاً للطريق ، يصدُّون عن سبيل الله .

٣- ابتغاء العوج لسبيل الله سبحانه :

﴿ وَيَبْتَغُونَهَا عَوْجًا ﴾

يريدونها سبيلاً عوجاء غير مستقيمة ، والله جعل هذه السبيل سبيلاً مستقيمة لا عوج فيها ولا أمت ، لا تميل إلى اليمين ولا إلى الشمال .
الصِّراط المستقيم هو أقرب طريق إلى الهدف ، الله جلَّ وعلا يريد بها مستقيمة ، وهم يريدونها عَوْجًا .

قال : ﴿ وَبَيَّغُونَهَا ﴾ ، لأنَّ السبيل تُذكر وتؤنث ، فأحياناً تذكر كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لِبَسِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ (الحجر: ٧٦) ، وأحياناً تؤنث ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف: ١٠٨) ، فهؤلاء يريدون هذه السبيل عوجاء .

الضلال البعيد :

﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

هؤلاء الكافرون المستحبون للعالم على الآخرة ، الصادقون عن سبيل الله ، الذين يريدونها سبيلاً عوجاء ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ . كأنَّ هناك ضلالاً قريباً وضلالاً بعيداً .

ما معنى الضلال ؟ الضلال هو : الغياب والذهاب عن الحق والصواب . ضلَّ أي : ذهب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (السجدة: ١٠) . أي : إذا غبنا في الأرض وأصبحنا عظاماً ورُفَاتًا ، واختلطنا بالتراب وانتهى الأمر ؛ إنا لمبعوثون ؟ !

الضلال الدنيوي والديني :

هنالك ضلال دنيوي وضلال ديني .

فالضلال الدنيوي : في أمور الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف: ٣٠) .

أي : أساءت التصرف ، تترك العزيز ، وتحبُّ الخادم الذي يخدمها ويعمل عندها !

ومثل ذلك ما قال أبناء يعقوب : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف: ٨) ؛ لأنه أحبُّ أخويننا الصغيرَيْن ونحن عُصْبَةٌ . ولما قال لهم : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ ﴾ (يوسف: ٩٤) . قالوا له : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ (يوسف: ٩٥) . فهذا ضلالٌ دنيوي .

لو أرادوا إزاله الضلال الديني لكفروا ، كيف يصفون أباهم وهو نبيُّ ابن نبيِّ ابن نبيِّ ، الكريم ابن الكريم ابن الكريم أنه في ضلال ديني ؟ ! لا . . فمعنى الضلال هنا : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ (يوسف: ٩٥) أي : إنَّ رأيك غير سليم .

وهناك الضلال الديني : والقرآن حين يذكر كلمة ضلال يُراد به في الأكثر الضلال الديني ، الضلال عن الحقِّ ، وعن الهدى . فهؤلاء : ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٧٤) ، ضلال ظاهر ، لأنَّ الحقَّ ظاهر أمامهم وضلُّوا عنه ، وضلُّوا عن الطريق ، عن الاتجاه الصحيح .

إذا كان الضلال عن الاتجاه الأساسي ، فالإنسان كلما مشى في الطريق كلما أوغَلَ في البُعد . الطريق شرق وهو يذهب إلى الغرب ، كلما مشى كيلومتراً بعدُ عن الهدف ، وكلما مشى عشرة كيلومترات صار أبعد عن الهدف ، كلما مشى يزداد بُعداً ، هذا هو الضلال البعيد ، الله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١١٦) ، ويقول : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١٣٦) .

ضلال الكفار البعيد :

فضلال هؤلاء الكفار الذين لم يهتدوا بهدى الله ، ولم يهتدوا بالكتاب المنزل ، ولم يُخرجهم من الظلمات إلى النور ، ولم يهتدوا إلى صراط العزيز الحميد ، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وصَدُّوا عن سبيل الله ، وبَغَوْهَا عَوْجًا ؛ هؤلاء في ضلال بعيد ، لا يُرجى لهم منه عودة إلا أن يأذن الله عزَّ وجلَّ ويهديهم إلى صراطه المستقيم .

تيسير أسباب الهداية :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ٤)

تعنت قريش في طلب نزول القرآن بالأعجمية :

كأن قريشاً قالت : لولا أنزل على محمد الوحي بلغة غير اللغة العربية ، وهذا من تعنتهم ، يقولون هذا عن محمد ﷺ وهو العربي ، والمبعوث إلى العرب ابتداء ، كيف ينزل عليه كتاب بغير لغته؟ لا يفهمه هو ولا يفهمه قومه .

إنما هو التعنت الذي أوصلهم إلى أن يقولوا : ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ اَوْ اَتِنَّا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢) .

هل هذا عقل؟ من المفترض أن يقولوا : (اللهم إن كان هذا هو الحق اهدنا له) . ولكن أن يقولوا : اَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً اَوْ اَتِنَّا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ . أي منطق هذا؟! لقد فقدوا المنطق والعقل فقالوا : ﴿ اَنتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هٰذَا اَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (يونس: ١٥) بلغة أخرى ، كأن عندهم اللغة التي تنزل بها كتب السماء غير اللغة العربية ، وكأنه يوجد لغة دينية مخصوصة ، اللغة العربية ليست منها .

ردَّ الله سبحانه عليهم في سورة فصلت ، فقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا اَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ اَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ (فصلت: ٤٤) .

كيف يكون القرآن أعجمياً والمنزل عليه عربي؟!

وهذا هو المنطق ، لذا ردَّ القرآن عليهم مقولتهم العجيبة والغريبة وغير المنطقية بالمرّة ، يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ، كلُّ الرسل قبل محمد ﷺ من عهد نوح إلى من بعده ، أرسلوا بلغة أقوامهم ليبيّنوا لهم ،

لأنَّ كلَّ رسولٍ مُهمَّته أن يُبَيِّنَ لقومه : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النحل: ٣٥) ، الرسل عليهم أن يُبلِّغوا ، وأن يُبلِّغوا بلاغاً مُبيناً ، يوصل المعنى إلى العقول وإلى القلوب ، هذا هو المطلوب من الرسل ، ولا يكون هذا إلا إذا أرسل الرسول بلغة قومه .

دلالة كلمة (لسان) في القرآن :

وكلمة لسان في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ ماذا يُراد بها؟

اللسان يُراد به أحياناً هذا العضو : (صغير الجِرم كبير الجِرم) ، كما يقول العرب . هذا الجرم الصغير ؛ كما يقول الله عنه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۖ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۚ ﴾ (البلد: ٨، ٩) ، وكما يقول الله تعالى عنه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النور: ٢٤) ، وكما قال الله عنه : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (الفتح: ١١) .

أحياناً يُراد به هذا العضو الذي بـ (الفم) ، وأحياناً يُراد بكلمة اللسان : اللغة . لسان قوم أي : لغتهم . كما قال عز وجل عن القرآن : ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥) ، هو لسان اللغة العربية ، اختاره الله لينزل أعظم كتبه ، وآخر كتبه التي تتضمن كلمات الله الأخيرة الهادية للبشرية جميعاً ، اختار لغة العرب ؛ لما فيها من خصائص لا تتوافر لغيرها من اللغات ، ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ تَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

(الأنعام: ١٢٤) .

اختار محمداً ﷺ وهو أفضل الخلق ، ليحمل الرسالة العامة الخالدة الخاتمة ، واختار العرب ليكونوا قومه وصحابته ، واختار لغة العرب لتكون اللغة التي ينزل بها القرآن العظيم ، ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ تَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٤) .

بيان الرسول ﷺ :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

مهمة الرسول أن يُبَيِّنَ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤) ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (النحل: ٦٤) فمن أوصاف القرآن أنه كتاب مبين : ﴿ الرَّا تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ﴾ (الحجر: ١) ، والرسول مبين لقومه .

الطريق إلى تبليغ الرسالة العالمية للناس :

ولكن من المعروف أن محمداً ﷺ لم يرسل إلى العرب وحدهم ، إنما أرسل إلى العالمين : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: ٢٨) ، ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨) .

فكيف يخاطب الناس وهو مُرْسَل بلسان عربي ، وكتابه كتاب عربي ، وقومه من العرب ؟

كيف سنوصل الرسالة العالمية إلى الناس؟ هنا يأتي دور الترجمة ، نوصلها بأن نترجمها إليهم .

الصحابة والمسلمون في الزمن الأول كانت خطتهم ، وكان منهجهم أن يترجموا الأمم إلى الإسلام ، الأمم تتحول إلى الإسلام ولغة الإسلام ، يتحولون إلى اللغة العربية ، فلا يحتاجون إلى ترجمة ، هم يتعلمون الإسلام ، ويتعلمون لغة القرآن معها ، فلسنا بحاجة إلى أن نترجم لهم القرآن ؛ لأنهم تُرجموا إلى القرآن .

بعد ذلك ، لم يعد هذا النهج قائماً ولا مقدوراً عليه عند المتأخرين من المسلمين ، أصبحنا في حاجة إلى أن نترجم القرآن إلى الناس .

ترجمة القرآن :

في العقد الأول من القرن العشرين حصلت معركة في مصر بين العلماء عن ترجمة القرآن ، هل يُترجم القرآن أو لا يُترجم ؟ وقالوا : لا تجوز الترجمة ، ودخل فيها شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ، ودخل فيها علماء كبار ، وكتب قاضي القضاة الشيخ محمد سليمان^(١) كتاباً سمّاه : (حَدَّثَ الأحداث في الإسلام) ، وكتبَ فيها كتب ، وانتهى الأمر بعد هذا كله ، إلى أنه لا بد من ترجمة معاني القرآن .

ليس المقصود بترجمة القرآن ترجمة حرفية ، ولكن ترجمة معاني القرآن ، ولذلك كانت هنالك محاولات لاختيار موجز مختصر ليترجم منه القرآن .

قام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف بمصر ، عبر لجنة من العلماء ، من مختلف الأقطار بإصدار كتاب : (المنتخب في تفسير القرآن) ، ليكون هذا (المنتخب) مصدراً لترجمة معاني القرآن .

ولا زال المسلمون إلى اليوم مقصّرين في ترجمة معاني القرآن إلى اللغات المختلفة .

لو نظرنا إلى ما فعل النصارى المبشرون والمنصرون ، ترجموا الإنجيل إلى مئات وربما آلاف اللغات واللهجات للعالم ، حتى اللهجات ، ونحن حتى اليوم لم

(١) هو القاضي الأديب المصري محمد سليمان إبراهيم عنارة ، تعلم بمدرسة القضاء الشرعي ، وولي القضاء في (ببا) من أعمال بني سويف ، ثم كان نائباً في المحكمة العليا الشرعية بالقاهرة ، وتوفي فيها سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م ، من أشهر كتبه : (من أخلاق العلماء) .

نكد نترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية التي هي أكثر اللغات اتّساعاً ، ويتكلّم بها مئات الملايين من المسلمين .

الإشادة بترجمة معاني القرآن للدكتور أحمد زكي حمّاد :

هنالك محاولات جيّدة آخرها محاولة الأخ العالم الفاضل - الذي جمع بين الثقافتين : الثقافة الأزهرية والثقافة الغربية ، ودرس في جامعة شيكاغو - أخونا الدكتور أحمد زكي حمّاد ، ترجم معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية ، وعاش أكثر من عشرين سنة يعمل في هذه الترجمة ، وعرضها على كثير ممّن يعرفون الإنجليزية فأثنوا عليه .

وقد قمتُ بكتابة مقدّمة لهذه الترجمة وإن لم أعرف اللغة الإنجليزية ، وإنما قلتُ ذلك بناء على تزكية المُزكّين الثقات الذين يعرفون العربية والإنجليزية ، ولأنني أعرف الجهد الذي بذلَ فيها ، وقد جمع التفاسير القديمة والحديثة ، تفاسير الرواية وتفسير الدراية ، وشغل نفسه بهذا الأمر ، وأصدر هذه الترجمة لمعاني القرآن الكريم .

معنى جديد في قوله سبحانه : ﴿ بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

وأريد أن أفف هنا عند كلمة : ﴿ بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ ، أنا أستخلص من كلمة : ﴿ بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ ، معنى آخر غير المعنى العام الذي هو اللغة .

فكلمة (لسان) لها معنى آخر كما وردَ عن الإمام الشافعي وغيره قال : لسان اليونان غير لساننا^(١) . لا يقصد أنّ اللغة غير اللغة ؛ إنما يقصد أنّ مدخلهم العقلي

(١) انظر : صون الكلام للسيوطي ص ٤٥ .

غير مدخلنا ، كل جماعة لهم لسان ، ولذلك ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ .

أنا أفهمها أن على الرسول أو على الداعية في عصرنا ، على ورثة الرسل والأنبياء : أن يكلموا كل قوم بلسانهم ، العامة لهم لسان ، والخاصة لهم لسان ، البدو لهم لسان ، والحضر لهم لسان ، أهل المدن لهم لسان ، وأهل الريف والقرى لهم لسان ، أهل الشرق لهم لسان ، وأهل الغرب لهم لسان ، الناس في القرن الحادي والعشرين لهم لسان ، وقبل قرنين مضيا لهم لسان آخر .

لا بد أن تحدث الناس بلسانهم ، كثير من الدعاة يخطئون هذا المنهج ، ويتحدثون بلسان غير اللسان المطلوب ، يذهبون إلى العوام ويحدثونهم بلسان الخواص ، فيشكل الأمر عليهم ، ولا يستطيعون أن يصلوا إليهم أو العكس ، أو يذهب إلى أمريكا ويحدث الناس بمشكلات بلاد الشرق الأوسط ، يتحدث عن الأضرحة والمزارات والأولياء ، وأمريكا ليس فيها أضرحة ولا غيرها من الأمور الموجودة في الشرق الأوسط ، لم يشغل الناس بمشكلة غير موجودة . !!؟
نريد من ورثة الرسل والأنبياء أن يبينوا لقومهم بلسانهم ، يكلم كل جماعة بلسانها حتى يصلوا إلى الحق .

علينا الدعوة وعلى الله تعالى الهداية :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

أي : أرسلناهم بلغات أقوامهم ، وبلسان أقوامهم ؛ ليبيّنوا ، ولكن ليس من الضروري أن يهتدي جميع الناس بعد البيان .
الإنسان عليه البيان ، وعليه البلاغ ، ولكن ليس عليه الهداية كما قال تعالى :
﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (البقرة: ٢٧٢) .

إنما عليك الدعوة وعلى الله الهداية ، عليك البلاغ وعلى الله الحساب ، عليك أن تَبْذُرَ الحبَّ وترجوَ الثمار من الربِّ . ابْذُرْ بذور الدعوة ، قُلْ كلمة الحقِّ ، ولكن النتيجة ليست بيدك .

سَيِّدُنَا نوح ظلَّ ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو الناس ، وما قَصُرَ وما ضَعُفُ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿١٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿١٧﴾ ﴾ (نوح: ٥-٧) .

وَضَعُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ، وقالوا : لا نريد أن نسمع صَوْتَكَ : ﴿ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ ، وَضَعُوا ثِيَابَهُمْ عَلَى وجوههم وعلى أعينهم ، وقالوا : لا نريد أن نرى وجهك ، ولا نُحِبُّ رُؤْيَاكَ ولا سَمَاعَكَ .

ما قَصُرَ نوح عليه السلام ، بل قال ﷺ : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿١٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٢٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجعل لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (نوح: ٨-١٢) ، وَعَظَّمَهُم وَرَغَّبَهُمْ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَأُمُورِ الْآخِرَةِ وَلَمْ يَقْصُرْ .

سُنَنُ اللَّهِ فِي الْهَدَايَةِ وَالضَّلَالِ :

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

ولكنَّ الله يضلُّ مَن يشاء ، ويهدي مَن يشاء ، القلوب ليست بأيدينا ، القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن .

هنالك سنن تحكِّم الناس ، هنالك قواعد هي التي تتحكَّم في الناس ، وقد رأينا أناساً يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، يَتَضَحَّ لهم الحقُّ ، ومع هذا يكفرون ، من بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: ١٤) ، بعد البيان يضلُّ الله مَن يشاء ويهدي مَن يشاء .

وقوله تعالى : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، فيها كلام كثير ، لأنَّ بعض الناس يريد أن يجعل من مثل هذه الآيات دليلاً على الجبر ، دليلٌ على أن الإنسان مُسَيَّر لا مُخَيَّر ، وأنه مجبورٌ لا مُختار ، وأنَّ الله هو الذي يضل ويهدي ، وأنَّ الهداية بيده ، ولا دخل للإنسان فيما جنت يده !!

مثل هذا الكلام ليس صحيحاً ، إنَّما الهداية من الله ، إنه يعطي نَفَحَات لِمَنْ يشاء ، ولكنه وضَّح للجميع الحقَّ ، وأقام الحُجَّةَ ، وأبطلَ التَّعَلَّات والأَعْدَار ، ليس لأحد أن يقول : أنا لم أعرف الحقيقة . لا ، بل عرَفْتَ ، وكلُّ شيء كان أمامك ، كلُّ شيء كان واضحاً ، ما الذي منعك من الإيمان ؟ كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿ (الانشقاق: ٢٠، ٢١) ﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴿ (النساء: ٣٩) ، ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الحديد: ٨) ؟ !! الأمور واضحة .

فقوله تعالى : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، ليس معناها : أن الأمر فيه جبر ، بل الأمر موكولٌ إلى إرادة الإنسان واختياره : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٤) ، ﴿ مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (الإسراء: ١٥) ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦) .

الإضلال والهداية بحسب ما في النفوس كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ (البقرة: ٢٦، ٢٧) ، ﴿ وَهَدَىٰ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (الرعد: ٢٧) ، ﴿ اللَّهُ سَجَّيْتُ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٣) .

هنالك إذن استعدادات في النفوس تأتي الهداية والإضلال بحسبها : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ (الرعد: ٢٧) .

مناقشة أحد المفسرين المعاصرين في إرجاع ضمير الضلال والهداية إلى كلمة (مَنْ) :

وهنا ملاحظة كان ذكرها أحد المفسرين في العصر الحديث ، وهو الأستاذ : عبد الحميد الخطيب ، وكان سفير المملكة العربية السعودية في باكستان وبنجلادش وله تفسير ، (تفسير الخطيب المكي) هذا التفسير قال فيه : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (النحل: ٩٣) مَنْ يَشَاءُ الضلالة يضلُّه ، وَمَنْ يَشَاءُ الهداية يهديه .

فجعل يشاء هنا ليست مرجع الضمير إلى الله ، ولكن مرجع الضمير إلى كلمة (مَنْ) ، مَنْ شاء الضلالة أضله الله ، وَمَنْ شاء الهداية هداه الله ، وبعض الناس أيده في هذا ، وأنا أرى أن هذا ليس هو المتبادر من الآية ، لأن كلمة : ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، ذكرت في آيات كثيرة جداً : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (البقرة: ٢١٢) ، ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (العنكبوت: ٢١) ، ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (آل عمران: ١٢٩) .

ذكرت ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ في القرآن الكريم مرآت عديدة أكثر من مائة مرة كلها ترجع إلى الله عز وجل .

فلماذا كلمة : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، هنا نستثنيها ، ونقول : ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : الإنسان؟ فماذا تفعل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ (الأعراف: ١٥٥)؟ الخطاب هنا لا يوجد فيه : ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فالذي يشاء هو الله عز وجل ، ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، أي : الله يُضِلُّ مَنْ يشاء له الضلالة ، ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : له الهداية ، ولكن الهداية والضلالة تأتي وفق سنن الله .

فهذا الكون كله بما فيه الإنسان ، تحكمه سننٌ وقوانينٌ كونيةٌ واجتماعيةٌ لا تتبدل ولا تتحول ، ﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر: ٤٣).

سرُّ اقتران العِزَّة بالحكمة :

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

العزیز : القويُّ الغالب المنيع الذي لا يُغلب ، ولا يعجزه شيء ولا يقهره شيء ، بل هو الواحد القهَّار ، هو الغالبُ دائماً ، هو القادرُ دائماً ، هو العزیز .

وهو الحكيم . كثيراً ما يذكر مع العِزَّة الحكمة ، قُرِنَت الحكمة بالعِزَّة في القرآن في آيات كثيرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٠) ، ﴿ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦) ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٨) .

الحكيم : هو الذي يضع كلَّ شيء في موضعه . ليس هنالك خللٌ ، الحكمة الإلهية وضعت كلَّ شيء بمقدار : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨) . ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩) ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢) ، كلُّ شيء بقدرٌ موزون ، ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر: ١٩) ، حتى النبات موزون .

يقول علماء البيولوجيا والنبات : موزون ليس الميزان المعنوي فقط ، بل هو ميزانٌ حقيقيٌّ يمكن بالمليجرام ، وما هو أدق من المليجرام ، كلُّ شيء موزون ، فالله سبحانه وتعالى هو الحكيم : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ (البقرة: ٢٦٩) ، هو الذي آتى آدم الحكمة ، هو الذي آتى داود الحكمة ، هو الذي آتى الأنبياء الحكمة ، هو صاحب الحكمة ، وهو

الحكيم بكل شيء ، لم يخلق شيئاً باطلاً ، ولم يشرع شيئاً عبثاً ، كما قال أولو
الآباب : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩١) .

* * *